لـؤم مـتـبـادل .. تحت مـظـلـة الـقـانـون

شذا شرف الدين

كنت أبحث عن موقف للسوزوكي الحمراء، في زقاق ضيّق متفرع من شارع «أوغوست»، حين سمعت خبطة خفيفة. التفتُّ حولي وتفاجأتُ بتوقف «جيب» أسود ضخم حجب عني الطريق الرئيسي، ما لبث أن نزل منه رجل بهدوء مبالغ لشخص تضررت سيارته الفخمة للتو. راح الرجل يتفحصّ مكان الصدمة باكتراث نسبي دون إعياء نفسه بقول أي شيء. كنت قد تأخرت عن موعدي مع وليد الذي وعدته بإيصاله إلى المطار بعد زيارتنا لإحدى صالات العرض في شارع «أوغوست». ترجلت من سيارتي واعتذرت من السائق حين تبيّن بأني مسؤولة عن الخبطة، رغم أن مرآة سيارتي الجانبية، التي اصطدمت «بالجيب» من طراز «ديفيندر» لم يبد عليها أي أثر للاصطدام. فهي انطوت على ذاتها ما أن التقت «الديفايندر» الضخم الذي ظهر على جانبه خدش طوله أربع سنتمترات تقريباً. كان خدشاً بسيطاً، لكنه خدش على أية حال. قلت للسائق إني مستعدة لدفع ما يقرّه على الفور، إذ أنني على عجلة من أمري. أجاب بتذمّر بأنه لا يستطيع تقدير التكاليف ويفضّل ترك تلك المسألة لشركة التأمين. ثم أضاف وهو يحدّق بالخدش، بأن عليه الاتصال بالشرطة كي تصدر البروتوكول عن الحادث. سألته إن كان هناك فعلاً ضرورة للاتصال بالشرطة من أجل هذا الخدش..

ـ طبعاً، فعلى الشرطة أن تسجل تفاصيل الاصطدام!

ـ لكن الأمر واضح ولا حاجة لتسجيل أية تفاصيل: لقد اصطدمت بسيارتك وأنا أسير نحو الخلف، مما يعني أنني أنا المسؤولة، وأنا أعترف بذلك، ومستعدة أن أدفع لك ما تطلبه الآن، فأية تفاصيل تحتاج بعد للتسجيل؟

ـ لا، لا فأنا لدي تجارب سيئة وأفضّل إبلاغ الشرطة.

ـ ألسنا مؤهلين، بحكم أعمارنا، لحل هذه المسألة وحدنا؟

لم يُجب بل راح يكبس على أزرار هاتفه النقال.

ـ ..ثم لا شك بأن لدينا أموراً أهمّ نضيّع وقتنا عليها من هذا الحادث.

لم يجب. استدار وتكلّم مع مكتب الشرطة وأعلمني بأنهم سوف يحضرون خلال ربع ساعة. اتصل بي وليد سائلاً أين أنا، فطلبت منه أن يلاقيني في شارع الحادث الموازي لشارع «أوغوست». لم أنتبه أنني كنت في آخر شارع «أوغوست» نفسه. فهذه مشكلة أخرى، مسألة رصد الاتجاهات في ذهني. أرسلتُ وليد إذاً إلى الطريق الخطأ ووصل رجلان من الشرطة. الأول ابتسم حين رأى الخدش، الآخر لم يبتسم بل راح يتفحّص البقعة المتضررة (الخط الأبيض)، ويسجّل في دفتره التفاصيل بجدّية وحماس، جعلتني أشكك في قدراته العقلية.

سألتُ الشرطي الأول عن النتائج المترتبة علي من جرّاء الحادث، فأشار إلى أحد بنود قانون السير الذي يقرّ بوجوب دفع غرامة «التسبب بحادث»، بالإضافة إلى تكاليف حضور الشرطة إلى المكان. وإنه لا يعتقد بأنّ «نقطة» (مخالَفة) سوف تُضاف على «ملف السير» خاصتي... فاحتج الشرطي الآخر بعصبيّة قائلاً: بل هي سوف تحصل على الأقل على «نقطة» واحدة. هذا أكيد! «ثماني «نقاط» قد تؤدي إلى إجباري على المشاركة في دورة حول قوانين القيادة. وأنا كنت قد «جمّعت» ثلاثاً هذه السنة لتجاوزي السرعة المحددة). أثناء ذلك كنت قد تنبهت بأنني أعطيتُ العنوان الخطأ لوليد فعدت واتصلت به طالبة منه أن ينتظرني أمام الصالة من جديد وأكدت له أني آتية على الفور. انتهيت من تدوين المعلومات التي أرادتها مني الشرطة ورحلت للقاء وليد الذي أخبرته القصة بكاملها. لم يصدّق وليد بأن الضرر الذي أحدثته هو خدش بسيط فحسب. ولمّا أكّدت له ذلك مشيرة إلى مرآتي التي لم يظهر عليها أي أثر اصطدام، صدّقني على مضض. ثم سألني حين أوصلته إلى المطار، إن كنت لا أزال مصرّة على الحصول على الجنسية الألمانية.

بعدها ببضعة أيام تلقّيت رسالة من الشرطة جاء فيها أنني حصلت على «نقطة» في ملفي، بالإضافة إلى أن علي دفع غرامة ثمانين يورو لتسببي في حادث سير في شارع «أوغوست». بعدها بأسبوعين أتتني رسالة أخرى من التأمين تقول إنهم اضطروا لدفع ٩٠٠ يورو لصاحب ـ «الديفيندر» كتكاليف الضرر الذي أحدثته، ولذلك سوف يرتفع مبلغ ضريبة التأمين بقدر عشرين في المائة للسنتين القادمتين وإلا عليّ دفع المبلغ بأكمله على الفور.

...على حين غرّة، تصبح برلين بلاداً عصرية بسرعتها.

***

في الطابق الثاني يسكن الألماني من أصل يوغوسلافي: نيكو دراغان. نيكو ضخم الجسم، خفيف الظلّ، يرمي بنكاته، التي نادراً ما أفهم مغزاها على الدرج، كلّما التقينا. لا أدري ماهية عمله لكنّه يفهم نظام وعقلية البلاد بحذق. طرق بابي الساعة العاشرة ليلاً على غير المألوف، قائلاً إن أحدهم اصطدم بسيارتي الراكنة أمام مدخل العمارة وبأنه شاهد عيان على الحادث، وان علي النزول لتسوية الأمور مع السائق. نزلت وحييت رجلاً في السبعين من عمره ثم تفحصت سيارتي التي لم أفلح في إيجاد أي دليل للاصطدام عليها. سألتُ العجوز عما حصل فشرح لي بأن سيارته حفّت بالواجهة الأمامية لسيارتي فيما كان يحاول الدخول إلى كاراج المبنى المجاور مشيراً إلى مكان الصدمة. هززت الواجهة البلاستيكية. كانت ثابتة تماماً. فاعتذرت كوني ما زلت لا أرى آثاراً لأي شيء... فقال العجوز إنه بالإمكان رؤية أثر الاصطدام إذا ما استعنّا بالضوء. وإذ تُضاء «المساحة المتضررة» من الخلف بقُدرة سحرية... استدرت لتبيّن مصدر النور، لأرى نيكو ماكثاً ببطاريته ورائي يتابع مجريات الأحداث بتأهّب صامت، وقف إلى جانبه صاحب المقهى التركي متين (محي الدين)، بسيجارة بين شفتيه، طلع منها رائحة «التبغ الأخضر»، جاعلاً يديه في جيبه، مركّزاً نظره في العجوز كأن ليُرعبه.

استدرتُ نحو «المساحة المتضررة» وتبيّنت خطاً أبيض بالكاد يُرى، بدا كما لو أنني حففت واجهة سيارتي بحذائي المطاطي مثلاً. فكّرت بأن وليد لن يصدّقني هذه المرة. بحثتُ عن زوجي فرأيته يتكلم بصوت خافت مع نيكو! استدار الأخير وسألني: هل أتصل بالشرطة؟ التفتُّ إليه باستغراب وسألته إن كان يمزح. قال لا إطلاقاً! ـ لا داعي لذلك فالأمر ليس بتلك الأهمية، قلت. فردّ بصوت خافت: أعلم. لكن حادث سيارة هو حادث سيارة. لا يهم إن كان صغيراً أم كبيراً. اصطدام هو اصطدام والشرطة سوف تسجّله على هذا الأساس. أعلم ما تفعله الشرطة، قلت، لكنني أجد أن القصة لا تحتمل هذا كلّه.

فردّ أنه عليّ في جميع الأحوال تدوين المعلومات الضرورية عن العجوز: أي اسمه وعنوانه ورقم سيارته، الخ.. ومن ثم فحْص السيارة من جديد خلال النهار إذ من الممكن أن يكون قد حصل ضرر لم ننتبه إليه الآن. وفيما كان زوجي يدوّن المعلومات عن العجوز همس لي نيكو: تريدينه أن يرحل هكذا، دون أن يتحمل نتائج ما فعله هذا الأبله؟ أنظري إلى المسافة، فشاحنة ضخمة كان باستطاعتها المرور دون مشكلة أما هو فلم يفلح بسيارته الصغيرة. ثم ربما سوف تضطرين لإبدال الواجهة بأكملها. من يعلم؟!

ورمقني بنظرة من يودّ أن يقول: أرجو أنك فهمتِ الآن قصدي. فابتسمت له بسمة الذي فهم القصد تماماً. سألت العجوز إن كانت سيارته مؤمنة فردّ بالإيجاب لكنه يفضّل حل الأمور دون تدخل شركة التأمين! طبعاً. قلت.

فاقترب منّي متين والسيجارة مازالت في فمه ليقول محدّقاً بالواجهة بصوت ثخين خافت: افعلي ما قاله دراغان، فعلينا أن نحاربهم بأسلحتهم. لا تنسي، القانون معك ونحن كلّنا شهود. سألته إن رأى الحادث، فأجاب بالنفي لكن كون الدنيا معتمة، لا أحد يستطيع تحديد من شهد الحادث، سوى هو نفسه... وانطلقت من فمه قهقهات عالية، قبل أن يهمس لي باستعداده ليشهد ضدّ العجوز لو طلبنا منه! شكرته على تعاونه مشيرة إلى أنني سأفعل إذا احتجت لذلك!

وفيما كنّا نهمّ جميعنا بالصعود إلى بيوتنا لمحتُ توماس، جاري في الطابق الثاني (وهو شيوعي سابق وعضو في حركة «الأتاك» المنافية للعولمة) يتجه نحونا ويسأل عمّا حصل، فأخبرته باقتضاب مشيرة إلى العجوز وسيارته. فقال ونحن صاعدون على الدرج: أعرف هذا الرجل، هو ينتمي إلى شهود يهوا الذين يقيمون قداساً في كنيستهم البالية في المبنى المجاور. لا تدعي هذا الأحمق يفلت من العقاب!

***

صباح اليوم التالي، قدتُ سيارتي إلى كاراج السيد فريتس الذي يعرف السوزوكي منذ اشتريتها ولا ينفك يحتقرها ويحاول إقناعي بالتخلّص منها. طلبتُ منه أن يتفحص ما إذا كانت الواجهة قد تضررت. التقط فريتس الواجهة البلاستيكية، وشدّها بقوة في جميع الاتجاهات. بقيت ثابتة لم تهتز. ثم قال:

ـ أوكي. لم يحصل شيء فعلياً، وهذا الخدش أستطيع حفه بورق الزجاج الذي سوف يزيله بخمس عشرة ثانية.

ـ تقصد أنه ليس على العجوز أن يدفع شيئاً؟

ـ لا أنا لم أقصد ذلك. الخمس عشرة ثانية لن تكلفك شيئاً: أستطيع القيام بحفّ الخدش الآن فيما نحن نتكلم لو أردتِ، علماً أن ذلك لن يجعل سيارتك تبدو أبهى طبعاً! لكنني أردتك أن تعلمي بأنني مستعد للقيام بذلك دون أجر. لكن بما يخص العجوز، هو أحدث ضرراً بالكاد يُرى، هذا صحيح. لكنه حادث سير بالتأكيد، وهو لا يستطيع التملص من المسؤولية بتلك السهولة. عدا عن ذلك فكونك لم تتصلي بالشرطة ولا بشركة التأمين خاصته، فقد وفرّت عليه ضريبة حادث السير كما ارتفاع قيمة اشتراكه في شركة التأمين. أنت قدّمت الكثير حتى الآن.

ـ لكن سيارتي كما تقول لم تتضرر.

ـ صحيح، لكن لا مفرّ من تحمّل المرء مسؤولية أفعاله في الحياة، وذلك بغض النظر عن النتيجة المتأتية منها. في هذه الحال، بغض النظر عن تضرر سيارتك أم عدمه. فكيف تريدينه أن يتعلّم من فعلته إذا تركته في حال سبيله ربما يتسبب بحادثة أخرى في الغد ظاناً أن الناس ستتركه يرحل دون عقاب... لا إن هذه المسألة لا تُناقش. عليكِ أن تُفهميه بأن ما قام به هو عمل جنائي ولا بدّ من ردّ فعل على هذا الأساس. على العجوز أن يدفع ثمن غلطته!

ـ وماذا عليّ أن أفعل برأيك؟

فقال مازحاً: أطلبي ثلاثمائة يورو نتقاسمها نحن الاثنين.

ـ لكن هذا كثير!

ـ أجل. هذا تقريباً نصف ثمن سيارتك حالياً! ثم تابع حين نهينا سخريته من السوزوكي: حسناً أطلبي مائة وخمسين، وفي حال رفض دفع المبلغ، تطلبين منه إحضار خبير لتحديد قيمة الضرر وسوف يكلّفه قدوم الخبير المبلغ المذكور على الأقل...

شكرتُ السيد فريتس ووعدته بالمرور به عماً قريب ليصلح زجاج السيارة المخلوع منذ ثلاث سنوات، فأنا شعرت بوجوب ردّ جميله بمنحي خمس عشرة دقيقة من وقته، دون مقابل.

***

وأنا عائدة إلى المنزل عرجت على دكّان اللبناني، لشراء الخضار التي يستوردها كلّ يوم أربعاء من الأردن. فتأهل بي أبو حسن وسألني عمّا حصل بالنسبة للسيارة. ولمّا تعجّبت من علمه بالحادثة أسرع بالقول أن متين مرّ به اليوم وأخبره عنها! قلت له بأن متين ثرثار وبأن الحادث بسيط ولا يحتاج لكلّ هذه الضجة. ـ لكن «ستّنا» لو كنتِ أنتِ مَن افتعل الحادث، لما تركك لحال سبيلك هذا الألماني. «أعلم، لكنني لستُ ألمانية»، قلت.

كما تريدين. ثم تابع: أنا مكانك لكنت استدعيتُ الشرطة، ودفّعت شركة التأمين، وطلبت بدل تعطّلي عن العمل ليومين أو ثلاثة، المدّة التي يحتاجها الميكانيكي لتصليح السيارة... وحتى أنّي ربّما تقدّمت بدل «ضرر نفسي»... كنتُ حصّلت على تعويض حتى آخر قرش، ذلك فقط كي أنتقم من هذا الشعب المتعجرف. هم لا يحترموننا ولا يحترمون عاداتنا ولا دينا ولو كان بمقدورهم ترحيلنا كلّنا لفعلوا ذلك دون تردد.

ـ لكن العجوز لم يكن متعجرفاً معي، قلت.

ـ أنتِ لا تفهمين عقليتهم. جميعهم متعجرفون. يصبحون غاية في اللطف والتفهّم ما إن يحتاجون إليك، أما إذا احتجتِ أنت إليهم فهم يتحوّلون إلى ناس أنانيين عديمي الإنسانية، لا ينظرون إليك سوى إذا كنتِ مصدر ربح بالنسبة لهم.

ـ يا أبو حسن، ما بالك. أعرف من الألمان أفراداً كما وصفتهم صحيح، لكن أيضاً أعرف آخرين أخلاقهم رفيعة.

فنظر إلي كأنه قطع الأمل من مناقشتي قائلاً بهدوء:

ـ أنتِ حظّك جيّد! لكن أرجوك، فشّي لي خلقي واجعلي العجوز يدفع ثمن الحادثة!

على أسفل درج البناية، التقيت بدراغان الذي سألني عمّا فعلت. أخبرته بما أتى به السيد فريتس وبأنني ما زلت أفكر في الموضوع. فقال وهو يتابع صعوده: فكّري جيداً. على العجوز أن يفهم بأنه حان الوقت له كي يتوقف عن القيادة!

ـ ربمّا معك حقّ. قلت.

ـ على كلّ، ليس من واجبك إعلامه بما قاله الميكانيكي. وأنا أعرف خبيراً سوف يقرّ لك بستة مائة يورو ككلفة تغيير الواجهة، تعطيه مائة له وتحتفظين بالباقي. خمس مائة يورو مبلغ لا بأس به في هذه الأيام. ألا تظنين كذلك؟... وحين رأى علامات الاستهجان على وجهي نظر إليّ بعتب، ثم إلى الأرض بأسف على أن تلك الحادثة لم تحصل معه، فهو كان عرف بالضبط كيف يستفيد منها.

في المنزل أخبرت زوجي بما قاله فريتس وسألته رأيه بأن نجعل العجوز يدفع الثمانين يورو، المبلغ الذي دفعته للشرطة كغرامة قبل أيام. هكذا أكون قد استعدتُ على الأقل بعضاً من التكاليف التي تأتّت عليّ من جرّاء حادث «الديفيندر»، أما العجوز فهو يدفع أقل بكثير مما كان سيدفعه لو لاحقته قانونياً! لا أدري كيف أتتني هذه الفكرة والأرجح أن نيكو دراغان والسيد فريتس فتحا خانة في ذهني كانت مغلقة حتى تلك الساعة: كيفية النصب على الطريقة الألمانية، والتي رحتُ أفكّر بها في اندهاش وحماس لاكتشافي طريقة قانونية للنصب لا شائبة عليها، لا بل هي حتى محبّذة! وأعجبتني الفكرة... لم يعلّق زوجي على أفكاري سوى بأنه لم يعد هناك أي عائق يحول بيني وبين الحصول على الجنسيّة الألمانية! ثم اقترح بأن أتصل بالعجوز وأطلب منه غضّ النظر عن الموضوع، ولكن على أن يكون حذراً المرة القادمة حين يدخل الكاراج. (تلقين الآخرين دروساً تأديبيّة لا بد منه، حتى من قبل الألمان غير الأصليين).

لم يقنعني اقتراح زوجي فاستحضرتُ نيكو، والسيد فريتس وتوماس ومتين وأبو حسن ورحت أتخيّل العجوز كيف يقبع على أعصابه أمام التلفون بانتظار اتصالي للإعلان عن الحكم عليه.

لا بأس بتعذيبه قليلاً، فكّرت. وقرّرت البت في المسألة في اليوم التالي.

صباحاً استفقت برأس صافٍ ومزاج هادئ ما لبث أن شوّشه رنين الهاتف. إنه العجوز الذي لم يعد يطيق الانتظار للاستماع إلى الحكم. حيّيته ثمّ طلبتُ منه بلطف، دون الإشارة إلى الأسباب، أن يتركني لحال سبيلي. أقصد أن يرحل لحال سبيله! فانهمر عليّ بخطاب عن كرم الأخلاق وعن ندرة الالتقاء اليوم بأشخاص «مثلي»، شاكراً إياي كلّ الشكر على «أخلاقي العالية»! أقفلت الخط بأسرع ما يمكن كي لا يزيد في إطرائه الذي لم أصدقه في أية حال، فأنا متأكدة من أنّ مديحه المبالغ لم يكن سوى نتيجة صدمة اكتشاف وجود حمقى مثلي في هذه الأيام.

مهما يكن، فلقد كان صباحاً جميلاً، أشرقت فيه الشمس على غير عادتها في مثل هذه الفترة من السنة، فاستمتعتُ بشرب قهوتي الصباحيّة على الشرفة متأمّلة السوزوكي الحمراء التي ركنت بهيبة «ديفيندر» أسود أمام مقهى متين، بائع «الأعشاب».

تـراث وحـداثـة الحرّيّـة والـثـورة

بولس الخوري

عند الإغريق قالت كتابة أولى على جبهة هيكل أبوّلون «اعرف نفسك»، وقالت كتابة ثانية «لا مغالاة». معنى الكتابتين أنّ على الإنسان أن يعرف نفسه إنساناً لا أكثر ولا أقلّ، فلا يجعل نفسه في مصفّ الآلهة، ولا في مصفّ الحيوان الأعجم. أمّا ما هو الإنسان، فيبدو أنّ شعار الثورة الفرنسيّة «حرّيّة، مساواة، أخوّة» أتى بالجواب عن السؤال. يعني الشعار أنّ ما يكون به الإنسان إنساناً لا أكثر ولا أقلّ إنّما هو الحرّيّة، بها يكون الناس متساوين واخوة.

ولمّا كانت الحرّيّة ذات الإنسان وجوهره، فالعجب أن يمعن الناس في إغفال ما هم به أناس. فقد أصاب الحرّيّة ما أصاب الكينونة في رأي هايدغر، عنيتُ النسيان ونسيان النسيان. وما استفاقوا عليها، وعلى ذواتهم، إلاّ متى خبروا نقيضها. فأحسّ الناس بأنّهم أحرار عندما رأوا بعض الناس مستعبَدين، وعندما خبروا ضعفهم في مواجهة ما يصيبهم من الطبيعة، وعندما واجهتهم معضلة التوفيق بين حرّيّتهم الفرديّة وما تفرضه عليهم المدينة والأخلاق والدين. وكان هذا التوفيق بجعل الفريضة يقبل بها الناس بملء إرادتهم الحرّة. وهذا ما قال به سقراط ومن بعده روسّو وكانط. فلمّا أحسّ الناس بأنّ حرّيّتهم حدّت من ممارستها حدود شتّى، أخذوا بتحديد «الحرّيّات»، أي الحقوق التي تضمن لهم التصرّف بحرّيّة. فكانت إعلانات حقوق الإنسان والمواطن، تعلن أوّل ما تعلن أنّ الناس يولدون ويبقون أحراراً.

والكلّ يعلم قول عمر الشهير: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟». وقد قام العلماء والفقهاء المسلمون بتحديد الحرّيّات أي الحقوق أي «الحرمات» أو «الضروريّات» التي تظهر من خلالها الحرّيّة. فجعلوها خمساً أو ستّاً، هي «الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال، وزاد بعضهم: العرض» (يوسف القرَضاوي: بيّنات الحلّ الإسلاميّ، ص ١٦٩). وإلى شرحها في كتب العلماء، ثمّة شرح لها في «الندوات» التي قام بها علماء سعوديّون في الرياض سنة ١٩٧٢، وفي باريس والفاتيكان ومجلس الكنائس بجنيف ثمّ في باريس وفي الجمعيّة الأوروبيّة بستراسبورغ سنة ١٩٧٤.

وتأكيد الحرّيّة على هذا النحو قد يعتقد بعضهم أنّه من عند الله، وبعضهم أنّه من الفطرة، وبعضهم أنّه من العقل الخالص. والعالم العربيّ لم يخلُ من مفكّرين سعوا إلى إحلال الحرّيّة للأفراد وللجماعات، فأطلقوا نوعاً من الثورة على الأوضاع القائمة. منهم الأفغاني ومحمّد عبده وحسن البنّا، ومنهم الطهطاوي وصرّوف وشميّل وقاسم أمين، ومنهم علي عبد الرازق وطه حسين، وكثير غيرهم على اختلاف توجّهاتهم.

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ الحرّيّة إنّما هي الدافع إلى الثورة. فالشعوب التي تعاني الطغيان أو الاحتلال أو الاستعباد تنهض طلباً للتحرّر. فإسبارتاقوس بجيشه من العبيد انتفض على روما. وأميركا تحرّرت من الاحتلال الإنكليزيّ. والثورة الفرنسيّة قضت على النظام الملكيّ القديم. والثورة البروليتاريّة قضت في روسيا على تسلّط الطبقتين الأرستوقراطيّة والبورجوازيّة. وتمثّلت بها حركات التحرّر في ما كان يسمّى بالعالم الثالث. فيبدو أنّ الحرّيّة لا تستثير الثورة إلاّ متى كان الناس في وضعيّة استلاب. فإذا كان الاستلاب ذا طابع اجتماعيّ وسياسيّ، كانت الثورة طلباً لإرساء نظام سياسيّ يعيد للناس كيانهم الإنسانيّ الحرّ. وإذا كان الاستلاب ذا طابع دينيّ، رفض المؤمنون أيّ وساطة بشريّة بينهم وبين معبودهم. أمّا الثورة الثقافيّة، فهي ترمي إلى تغيير في الذهنيّة يجعل سائر المحاولات التغييريّة ممكنة، فتكون الشرط اللازم لتحقيق ما تحلم به أجيال جميع الشعوب، وهو «تغيير العالم». ويعني تغيير العالم تغيير الإنسان، أي إحياء الشعور فيه بأنّه كائن يتحدّد بالحرّيّة، عليها قامت كرامته الإنسانيّة.

فما هي إذن هذه الحرّيّة في ذاتها؟ كثرت وتنوّعت تصوّرات الحرّيّة عند المفكّرين. لا حاجة لعرضها في نطاق هذا المقال. يكفي القول إنّ الحرّيّة تظهر من خلال الحرّيات التي تتموضع فيها. فهي في داخل الإنسان السيادة على النفس. وهي الاستقلاليّة تصدر عنها قواعد السلوك الأخلاقيّة. والمجتمع، لا كرامة له ولا صفة إنسانيّة إلاّ متى تمتّع بالحرّيّة. إذاك كانت الحرّيّة خاصّة الإنسان الذاتيّة وحقيقته الإنسانيّة. والحرّيّة عند نيتشه أن يصير الإنسان ما هو، أي الإنسان المتفوّق، ورمزه الطفل، الثائر على القيَم العتيقة، وصانع القيَم الجديدة.

فهل أحسّ الإنسان العربيّ اليوم بالحرّيّة تدفعه إلى الثورة، فإلى تغيير أوضاعه إلى ما هو أفضل منها؟ وهل وعى تمام الوعي، فوضع الخطّة لمواجهة الأطماع الإمبرياليّة الجديدة، المتسترة بقناع ما يسمّونه بالديمقراطيّة، وبمشروع إعادة تنظيم الشرق العربيّ الأدنى والأوسط، وبالمشروع الأشمل، مشروع العولمة، للتحاشي عن سلبيّاتها وللاستفادة من إيجابيّاتها؟

العبرة من هذا كلّه أنّ الإنسان يثور باسم الحرّيّة على جميع أشكال الطغيان، بل عليه أن يثور باسمها، لأنّ الحرّيّة هي ذات الإنسان وحقيقته.

سِيَرٌ عربية تكتبها النساء بأقلامهن

عمر كوش

تبحث رفيف صيداوي، في كتاب «الكاتبة وخطاب الذات»، عن إمكانية وجود بنى روائية ذكورية وأنثوية، وعن خصوصية نظرة الرواية النسوية إلى المرأة والعالم، محاولة الإفادة من المقابلات أو الحوارات التي أجرتها مع عدد من الكاتبات العربيات اللواتي أسهمن في الكتابة والخلق في حيّز الكتابة الروائية والقصصية. والهدف العام هو التعرّف عن قرب إلى خبراتهن الحياتية، وتحديد سمات الكتابة النسوية العربية، إن صح التعبير، استناداً إلى العالم الشخصي والحياتي الخاص بكل كاتبة، وإلى فضاء الكتابة الذي يطاول فضاء الأسرة والمجتمع والعالم.

واختارت كاتبات من بلاد الشام ومصر، ممن تجاوزن الخمسين من العمر، اعتقاداً منها أنهنّ عانيْن من وطأة المجتمع البطريركي الذكوري أكثر من الأجيال الشابة. واستندت إلى التقسيم الذي يضع ثلاثة مراحل للرواية النسوية العربية، حيث تحفل المرحلة الأولى بالروائيات اللواتي ساهمن في مرحلة التأسيس للكتابة الروائية التي تمتد بين بدايات القرن العشرين المنصرم حتى أواسطه. والمرحلة الثانية، مرحلة ما بعد التأسيس، وتمتد من خمسينيات حتى سبعينيات القرن العشرين، ومنها اختارت محاورات مع كل من روز غريب وكوليت خوري وإميلي نصرالله. أما المرحلة الثالثة، فتمتد زمنياً من سبعينيات القرن العشرين حتى ثمانينياته، واختارت منها محاورات مع كل من حنان الشيخ وسحر خليفة ورضوى عاشور وسلوى بكر. ومعظم الكاتبات المختارات ينتمين إلى الطبقة الوسطى أو العليا، نظراً لأن بنات هذه الطبقات كُن الوحيدات تقريباً المتاح لهن التوجه نحو التعليم واكتساب لغات أجنبية، في زمن لم تكن الفرصة متاحة، بالقدر نفسه، لغيرهن من النساء العربيات. وتعترف صيداوي أن الحوارات التي أجرتها أسهمت في تعديل انطباعها الأول الذي يفيد بأن معاناة هؤلاء الكاتبات أكبر من معاناة كاتبات المرحلة الثالثة، من دون أن تنفي أن الكاتبة عموماً لا بد لها من عيش قلق الأنثى الخلّاقة.

والملاحظ أن صيداوي تحاول في هذا الكتاب رصد مرحلة ما بعد «البدايات»، التي تزامنت مع خروج المرأة من عالم الحكي إلى عالم الكتابة مع انتشار الصحافة عموماً، وفي مرحلة احتلت فيها الصحافة النسائية مكانة مميزة، وكأن التجارب الشخصية لروائيات تظهر الكيفية التي تمّ بواسطتها كسر الأطواق التي أحاطت بهن عبر الكتابة، والكيفية التي عالجن ـ بالكتابة ذاتها ـ نفوسهن المقهورة. تقول إملي نصرالله: «كان مقدراً لي أن لا أبلغ مرحلة أستطيع فيها التعبير كتابة... كان «فلقَ الحرف» يكفي وزيادة، لكني خرجت على تلك الأعراف المقبولة وحطمت القيود، وتجاوزت التقاليد».

وتظهر إجابات الروائيات عن سؤال «ماذا عنت لك الكتابة» أو «لماذا تكتبين» أن بعضهن يكتب كرد فعل على ثقل المعاناة التي تراكمت عبر تفاصيل حياتهن، أي أن الكتابة بالنسبة إليهن تعتبر جزءاً من عملية المقاومة، وكأن التحدي شكّل لهن مكوناً من مكونات فعل الكتابة. لكن الرواية ليست كتابة المغامرة بل مغامرة الكتابة، على حد تعبير الباحثين الفرنسيين برونوف وأولييه في كتابهما المشترك «عالم الرواية»، وبالتالي تغدو الكتابة لدى المرأة مغامرة مزدوجة، بحسب صيداوي، «لأن مغامرة الكاتبة لا تفترض، فقط، شأنها شأن الرجل، إثبات ارتباط التجربة الفردية بالوجود العقلاني، حسب الكوجيتو الديكارتي «أنا أفكّر، فأنا موجود»، وإنما على المرأة الكاتبة، قبل ذلك، إثبات ذاتها كإنسان لا يقل عن الرجل: أنا امرأة، فأنا موجودة».

غير أن كتابة المرأة تتميز بنكهة خاصة تعود إلى اختلاف تجربتها الاجتماعية، لذا لا تنهض خصوصية الخلق لدى المرأة في الأدب عموماً، وفي الرواية تحديداً، من ذات مبدعة مخلوقة من عدم، وإنما من حقل اجتماعي معين، مع أخذنا بالحسبان أن اللغة «امتداد لحواسنا»، حسب تعبير جان بول سارتر. فيما تعتبرها المؤلفة «وسيلة من وسائل الاعتراف بنا، ذلك أن احترام الذات، وحبّ الذات، هما المصدران الحيّان لكل تصرف بشري والاعتراف بالذات البشرية يرسّخ معنى الحياة لديها».

ومع ذلك ترفض صيداوي مصطلح «الأدب النسوي» الذي شاع عوضاً عن مصطلح «الأدب النسائي»، من منطلق نظري يفيد بأن لا هوية جنسية لبنية النص الروائي. وترى أن النص الروائي كبنية مستقلة يتشكل من عناصر، أهمها اللغة، الزمان، المكان، عالم الشخصيات، الرؤية... إلخ، وهي عناصر محايدة، لا تمتلك طبيعة جنسية. وتعزو المصطلح إلى نزعة نقدية سيطرت على بعض الكتابات، وأفضت إلى ثنائية ضدية بين كتابة الرجال وكتابة النساء. وكأن لكل من هاتين الكتابتين بنيته الخاصة. لكن الكتاب يتناول موضوع كتابة النساء وملابساته، متخذاً من الحوار متناً له، ويمتدّ موضوعه ليشمل الكتابة النسوية والكيفية التي تجلت بها، وملابسات كتابة النساء والإشكاليات المرتبطة بها.

وينهض مفهوم النسوية على اعتبار أن التفاوت في الجنس هو أساس اللا مساواة بين الرجال والنساء، وتعاني النساء بسببها ظلماً اجتماعياً منهجياً، وذلك ليس لأنها نتيجة للضرورة البيولوجية، بل أوجدتها جملة من البنى الثقافية للاختلاف في الجنس. وينطوي النقد النسوي على تفكير النساء بأنفسهن كناقدات يقاربن الأدب من منظور سياسي في إطار حركة تحرر النساء. وعلى خلفية هذا نشأت أسئلة حول علاقة النساء بالدراسة الأدبية، وعن سرّ غياب النساء عن التاريخ الأدبي، وعن الكيفية التي جرى فيها تصوير النساء في نصوص الرجال الأدبية، وعلاقة انتهاك النص للنساء باضطهادهن في المجتمع وما يزيد أو يقل عن ذلك. وقد تحول النقد النسوي أخيراً من التركيز على تبعية النساء الأدبية واستبعادهن إلى المقاربة النسوية للأدب، ودراسة كتابة النساء، وتحليل بنية الجنس وتجسيدها في الخطاب الأدبي. وهنا ينبغي عدم الخلط ما بين مفهوم «كتابة النساء» الذي يعني ما تكتبه النساء، من وجهة نظر النساء، سواء كانت كتابة عن النساء أو عن الرجال أو عن أي موضوع آخر، وبين مفهوم «الكتابة النسوية» الذي يعني الكتابة من وجهة نظر نسوية، سواء كانت من إبداع امرأة أو من إبداع رجل.

وتقرّ صيداوي بوجود حساسية مختلفة في كتابة المرأة منذ بداية كتابتها الرواية، بما هي أنثى عانت بسبب جنسها تحديداً من سجن القمع والإقصاء. وتعزوها إلى غايتها في تغيير منظومة المفاهيم الثقافية وإجلاء مواطن الإجحاف وجذور الظلم الواقعة على الإنسان بعامة والمرأة بخاصة.

ويظهر الكتاب مدى ارتباط إجابات الكاتبات عن أسئلة الكتابة بين الأنا وبطلة الرواية، كأنهن رفعن قناع الراويات، ليتكلمن عن خصوصيات تهمهن مباشرة كإناث. وعليه، تصف إميلي نصرالله الكتابة بأنها «نَفَس الحياة»، وأنها تشعر بالتصاق عضوي بالحرف والقلم، منذ ذلك اليوم الذي تساءلت فيه: لماذا يخصص العلم للذكر و«فك الحرف» للأنثى؟ غير أنها لا تنطلق من أرضية كيانها الأنثوي في ما تكتب، بل من وعي اجتماعي لمجتمعها وبيئتها، أي من تلك البيئة «الطهرانية» التي تروّض الجسد كي تكون الغلبة للفكر والروح. وهي البيئة نفسها التي دفعت نصرالله الى ذكر التحديات الإضافية التي كانت تواجهها بسبب الإصرار على الخروج عن المسار التقليدي المرسوم للفتاة، وقد تكون البيئة التي حثّت بعض الكاتبات للخروج عن الخط الفني المقبول في كتابة الجنس العاري.

والسؤال المطروح بقوة هو: أي كتابة؟ وهل تشمل مرحلة البدء والتمارين الأولى أم تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير؟ تقول روز غريب إن الكتابة هي «مكافحة عادة أو تقليد مضر تألمت منه، وخصوصاً أن النقد الاجتماعي ليس لمجرد النقد بل للإصلاح والتطوير وسد الحاجة، بات متأصلاً فيّ». لكن، هل الكتابة الروائية تحقق الذات وتمدّ الطموح إلى أبعاده المتخيلة؟

يبدو أن طموح الكتابة مقطوع بالسؤال عن إمكانية زوال الغربة لدى مواجهة كل اختبار عن المفقود والمجهول في الكتابة النسوية. ولن يغير الأمر في شيء رفض رضوى عاشور الاستعمار الداخلي والخارجي، وكل ما يطاول إنسانية الإنسان، وحقه في حياة كريمة وعادلة. كما لن يجدي نفعاً في هذا المجال التوحيد ما بين العام والخاص، لأن تأجيل قضية المرأة، الذي طبع الأعمال الأولى لسحر خليفة «بسبب كابوس الاحتلال»، لم يمنعها من التساؤل عن خصوصية المرأة في ظل مجمل الأطروحات القومية والوطنية والطبقية، ولا أعتقد أن العامل النفسي هو السبب الوحيد الذي دفع سلوى بكر للكتابة مع أنه أعطاها نوعاً من التوازن النفسي، وجعل حنان الشيخ أيضاً تشعر براحة نفسية لدى كتابة الرواية، لأن عالم الكتابة النسوية ممتدّ وواسع الفضاءات.

- الكتاب: الكاتبة وخطاب الذات.
- المؤلف